

التي تشمل كل الوجود . وأن وجود النفس وبقاء نهاية الإرادة على ماها عليه ، بحدان الحياة بسموم الألم وما يفرج منه من حزن وخوف وقلق .

ولذلك يجب على الإنسان أن يفتش من أسباب نقصه سواء أكان في عقله أم في إرادته ، ويسأل على أن يقومه ، ولا يياس من طول مدة التقويم ، ويشارك على معالجة عقله وإرادته حتى يصل إلى مكانة من الرق الروحي ينمى فيها شعوره بأى نوع من الآلام سواء أكانت من تلك الآلام التي تنتاب النفس حين يصدر عنها إثم من الآثام ، أو من تلك الآلام التي تطرأ عليها عند الفشل في أداء عمل من الأعمال .

أما من الآلام التي سببها انقراض الخطايا ، فترجع إلى جهل الإنسان بجموه حقيقته وغفلته عن أن إرادته مرتبطة بقانون خلق ليس إلا صورة من صور سرور الله التي تتجلى في الكون ، وأنه يجب على النفس أن تعلم أن الله مستقر فيها في قالب القانون الخلق ، كما يجب على الإرادة أن تأتمر بأوامر هذا القانون ، فإنه هو الذي يترك أسرها ويساعدها على تحطيم قيود الرغبات والأغواء ، ويضع لها الشعب لتساب تدريجياً إلى لا نهاية الله ، وتوصلها إلى تلك الحالة الروحية التي تبلغ بها ملكوت السماء ، فيستحيل عليها ارتكاب القنوب التي تخلقها وتبعث فيها الأحران ، وإثامتها بنعيم الحياة في الحقيقة المطلقة الأبدية التي لا تتباين فيها جميع الوجودات .

بينما الفشل في العمل يمكن التغلب عليه بتنمية الواهب ، وترقية الملكات ، وتربية المهارات من طريق العلم والعمل ، لأن الزود بثقافة توسع من أفق المرفة ، وتزيد من قوة الإدراك ، نجنب الوقوع في غلطات تجلب مشكلات شائعة . وإن ممارسة العمل ممارسة واقعية تكسب دراية عملية به ، وبراعة فائقة في أدائه إلا أن كثيراً من الناس يزعمون أن هذه البراعة لا تكتسب بدون مشقة ترهق النفس وتذيقها بعض الآلام ، وأن الذين فضحت مداركهم ومهوت قدراتهم لا تنحل حياهم من آلام ومتاعب ، فضلاً عن أن مجرد وجود الإنسان في الحياة يكلفه عذاباً دائماً ، إذ يتطلب منه كفاً متواصلاً ليحصل على ما يوفره حاجاته المادية .

ولكن طافور يسخر من هؤلاء القوم ويصورهم في صورة من يحسب تقل ضغط الهراء على جسم الإنسان ، فيجده تهاكاً هائلاً فيلطم في تقدير ما يرحح تحته جسم الإنسان من أعمال ، وينسى

فلسفة طافور المؤتمنية :

الآلام ثروة الإنسان الناقص

للأستاذ عبد الميز محمد الزكي

إن طافور الذي برأ الحياة من الشر ، وأرجع وجوده فيها إلى عصيان الإنسان لقانونه الأخلاقي ، لم ينب عن باله ما يبتلى الإنسان من نقص في عقله أو في إرادته ، ولم يغفل ما يسببه هذا النقص للإنسان من متاعب ، وما يجره إليه من فشل يثير في نفسه ألواناً متضاربة من الآلام قد تشق حياته وتنفث فيها التمس .

ومع ذلك لم يلق طافور نعمة هذه الآلام على الحياة ، وأخذ يدل على أنها لا تتعارض مع السعادة ، ولا تسرق الإنسان بالضرورة إلى الشقاء . وزعم أن الله خلق قوى الإنسان ناقصة وإرادته محدودة ، وأن النقص في حد ذاته لا يؤثر في الإنسان ، وأن حدود الإرادة لا تحد من نشاطها ، وإنما التي يؤذيها هو أن تظل قواه على ما هي عليه من نقص ، وتبقى إرادته حبيسة حدودها على القوام بدون أن يسي لاستكمال قواه الناقصة ، ولا يجد في أن تصير لإرادته المحدودة غير محدودة .

ولو خلق الله بادي ذي بدي قوى الإنسان كاملة وإرادته غير محدودة ، لغتبت قدرته اللانهائية من ناحية كل معنى لها ، ولتندر على الإنسان من ناحية أخرى أن يرتقى في سلم الوجود حتى يصل إلى تلك الدرجة الروحية النموذجية التي يتدمج فيها وجوده في وجود الله ، ويصبح هو والله حقيقة واحدة ، لأن القوة لا تتطور إلى أن تنضم نحوها إلا إذا دمنها للنقص لتكمل ، وأن الإرادة لا تتحرك حتى تصبح غير محدودة إلا إذا كانت تعمل على التحرر من نطاق حدودها الذاتية لتغنى في إرادة الله غير المحدودة . فلولا نقص الإنسان ما عرف الكمال ، ولولا حدود إرادته ما سارت غير محدودة .

فقص الإنسان ونهاية إرادته لا يستبان إليه بقدر ما يدفنه إلى طلب أدنى مهائب الكمال ، وبلغ السعادة لتقصوى بالتلاشي في لا نهاية الله . وما نفس الله الإنسان بهما إلا ليمكنه من السودة إلى التبع الذي انتهت منه ، ويخفزه على الفناء في روحه الكبيرى

أن من خواص هذا الجسم أن تتبادل مقاومته مع هذا الضغط ، بحيث لا يشعر بأى شيء ينوء حمله ، فإن كل ما يلاقه الإنسان في الحياة من عن وخطوب لا يفوق الطاقة البشرية ، ويشبه إلى حد كبير ضغط الهواء الذى لا تكاد نحس بوجوده ، وأن في قدرة الإنسان أن يقاومه ويتغلب عليه بأقل جهد .

وإذا بحثنا عن سبب شدة وطأة الآلام ، وعن وقع التعاب على الإنسان ، وجدنا أنه يرجع إلى أنه ينظر إلى الحياة نظرة ضيقة تنحصر في الحاضر دون المستقبل ، وتقتصر مطالب ذاتية عارضة دون المطالب السامية الدائمة ، فإن لم يحرز ما يريد بأسرع ما يمكن ، وفي أقرب فرصة ، وبأقل جهد ، يفلق ويضطرب ويظن بالحياة الطنون . وإن قل به خطب جزع اضياع غم عاجل لا يستفيد منه إلا شخصه . وإن خذلق في تحقيق مآربه أحسن بحيلة مرة تضايقه . وإن ماته عوارض الحياة وب فيه اليأس والقنوط ، ينال لو نظر إلى الحياة نظرة رحيمة تضم الحاضر والمستقبل ، وتحتضن خير كافة البشر الذى لا يتعمم تحقيقه في الوقت الحاضر ، إذ قد يتحقق في المستقبل القريب أو البعيد لما أكثرث بما يقابله من أهوال ، ولما حركت التعاب كوامن أشجانه ، ولا قدم غير هباب على تنفيذ كل عمل يراه ينفع الإنسانية ولا يرهب الطباب في سبيله ، وكان على استمداد دائم لأن يتحمل الشاق طائفا مختاراً ، ويقاسى الحرمان دون تضرر ، لا يسأم النضال الطويل ، ولا يثبط عنه الفشل المتوالى ، لأنه يدرك أن هذه الآلام ما هي إلا قرايين زهيدة فرضت على من يريد أن يحظى بالحياة في الفات الإلهية عن طريق تجميع ضرب من الخير العظيم بين الناس . فمن يزعم أن يسأل الآلام ليسد البشر ، فهو مزعمته على تذليل كل عقبة تترض هذه الغاية ، وتهون عليه نفسه فيضحي بها في سبيل خير الإنسانية ، ويسير سيرة حثيثاً نحو تلك الحياة الروحية التي لا يحس فيها المرء إلا بحقيقة فريدة لا مثيل لها ، هي حقيقة اتحاد المخلوق بالمخلوقات التي يستمتع في كنفها بسعادة عذبة هادئة ، ويتلذذ بشطة حلوة تحيط الإنسان بهالة من النشوة والحبور ، تدفق منه سارة الألم ، وتحميه من نسي الأحزان . فطلب الحياة في الله يصهر الماني المألوفة ، فيصبح السرور الذى تريد أن تنم به مصتياً ؛ لأن طريقه وعمره صعب ، كما يصبح الألم الذى نسفاه محبباً لأنه يقودنا إلى إسماء الخير ، ويسوقنا إلى الاتحاد بالله . فمن يرحب بالتضحيات من أجل الخير العام

المستمر ، يسط الحياة قيمة عليا ينمى فيها الفوارق بين شئى الماني التي يحياها عامة الناس ، وينفذ السرور والألم عنده تأثيرهما المتناقض المتداول ويتساويان ، ولا يتأثر بعضها عن بعضها بشئ ، لأن التمتع بالسرور لا يحدث بدون مقاساة الآلام ، والآلام هي الضريبة التي تمهد لنا طريق السرور . فالسرور والألم غنططان ، لا يسهل التميز بينهما في مثل هذه الأحوال الإلهية .

ولكن يبتس الإنسان في سرور دائم يجب أن يخوض ميدان الحياة الاجتماعية ، ليبني ويهدم ما لا يروقه ما يباه ، ويضع القوانين ويشيرها إذا وجدها لا تلائم خير المجتمع ، ويخلق الأكداس المكسدة من الآراء ، ولا يبالى ما قد يقع فيه من أخطاء فإن استمراره في خلق أفكار جديدة يصحح غلطاته ، ويكشف عن أسرار الطبيعة وقوانينها الخفى ، ويخترع مختلف الآلات ، أى يعمل بلا انقطاع ولا يخشى الفشل ، فإنه سبيل النجاح والتقدم ، ولا ينفك يبدل فما وصل إليه من علم وعمل ، ويشير ما دام فيها نقص أو عيب ، ويبحث راضياً مرضياً ، لا يفكر مطلقاً في تجنب الألم أو الهروب من التعاب ، بل يظهر براعته في القضاء على ما به من نقص وتعوطه إل كمال ، ويبرز مهارته في مختلف أنواع الألم من خذلان ونصب وشجن وخوف ، ويجعلها عنصراً من عناصر السرور . فلا يبنى لأحد أن يتزل الحياة رعباً من آلامها ومتاعها ، وإنما يجب عليه أن يتحملها صابراً ، طالما أن الألم ثروة الإنسان الناقص ، وعلامة على أنه أكبر من حاضره ، وبمثابة قوة دافعة تصيره مغلياً في الحياة ، ونخطوبه من حاضره المحدود نحو مستقبل بأمر غير محدود .

إن تطورا الحضارات ، وتقلب الدينيات ، ونبت الإنسان للتقدم واجتكار حديث يقوم مقامه ، فليل على أن الإنسان لا يفتأ يجد ويخلق ويسير من مرحلة إلى مرحلة أفضل منها ، حتى يبلغ أقصى درجات الكمال التي تمكنه له السادة الرجوة .

فالشكوى من الآلام والتعاب شكوى لا مسوغ لها ، ولا يبنى أن تترك لها أى منفذ لتترب منه إلى نفوسنا ، وتلقى فيها نواة التشاؤم ؛ لأن الآلام ضرورة لتقدم الحياة ، ومحك دقيق يقيس رقى الإنسان وبحسب مدى ما وصل إليه من سعادة وبين ما يق عليه من أشواط ليصل إلى ذلك السرور السرمدى الذى ينبعث في النفس من توافق حياة الإنسان مع حياة الله .

عبد العزيز محمد الزكي